رحلة الحج الميمونة لأحمد باي
آخر الحكام العثمانيين بالجزائر

من خلال جدارية متحف قصر الباي بقسنطينة

أ. **فلاك أنيسة** | باحثة في الآثار الإسلامية،
إطار بالمتحف العمومي الوطني للفنون والتعابير الثقافية التقليدية - قصر الحاج أحمد باي بقسنطينة.

الحج رحلة إيمانية مباركة، يهجر فيها المرء أهله وخلانه، بيته وأوطانه ليتصل بالمشاعر المقدسة، ابتداء من الكعبة وما حولها من مشاعر وانتهاءً بعرفات ومزدلفة فالمدينة المنورة، استجابةً لدعوة أبينا إبراهيم (عليه السلام)، وإقامةً للركن الخامس في الإسلام لقوله تعالى في سورة الحج الآية 27: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

وقد ظلت أفئدة الناس تتوق إلى مهد الإسلام: مكة المكرمة والمدينة المنورة، وباتت زيارةُ قبر الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم مبتغاهم.

وكان ممن حظي بشرف هذه الزيارة الحاج **أحمد باي** حاكم بايلك الشرق وآخر باشا حَكَم الجزائر تحت الخلافة العثمانية بدار الجهاد الجزائر المحروسة؛ فمن هو أحمد باي وما سبب هذه الرحلة؟

هو أحمد بن محمد الشريف بن أحمد باي القلي التركي (الذي حكم قسنطينة عام 1794م) وابن الحاجة رقية -كما ذكر أرنست- بنت بن قانة والتي تنتمي إلى أكبر عائلة لعرب الصحراء.

حدد الدكتور **بوضرساية بوعزة** تاريخ ولادته بقسنطينة عام 1784م، وهو التاريخ الذي حصل حوله الإجماع، آخر بايات قسنطينة، والحاكم باسم السلطان العثماني بالجزائر، بعد سقوط مدينة الجزائر العاصمة في أيدي المحتلين الفرنسيين عام 1830م؛ فسك النقود وجعل من قسنطينة عاصمة للأيالة.

تربى يتيم الأب، وهذا الأخير شغل منصب الخليفة في عهد **حسين باي** بن حسن بوحنك، ومات خنقا وهو في سن مبكرة دون أن يخلف إخوة لأحمد باي، فكان لزاما على أمه، في ظروف قاسية يشوبها القلق والخوف على ابنها من أن يلقى نفس مصير أبيه رغم صغر سنه، أن أخفته في جلد نمر وحملته على كتفيْها، ثم خرجت به من قسنطينة من باب القنطرة حيث تمكنت من حمايته بعيدا عن الحقد الذي يكنه له أعداء أبيه، فاستقرت به ببلدها الصحراء بين أحضان عائلة بن قانة، وهناك قامت بتربيته وسط القبائل العربية، فتفتحت عيناه على طباع أهل الصحراء من كرم وجود وأخلاق[1].

أسباب الرحلة

اختلفت آراء الباحثين حول أسباب هذه الرحلة:

فبوضربة يقول: إن الحاج أحمد باي ... في حداثته انقاد ... للمجون والفجور حتى صار أولياؤه يخشون أن يجر إليهم بعض المضار نتيجة سلوكه السيئ، ولذلك أرسلوه إلى مكة يحج تحت رقابة أحد أقربائه، فمكث بضع سنوات في البقاع المقدسة، ولما رجع بذل كل ما في وسعه ليعيَّن خليفة (أي قبل 1818م) واستمر في طموحه إلى أن حصل على المنصب الذي ظل ينشده وذلك في عهد علي باشا (حكم قسنطينة عاما واحدا 1817م)[2].

لقد أشرف جده الشيخ **بن قانة**، شيخ عرب الصحراء عن نشأته وتكوينه فكان حبه للدين الإسلامي يعكس تأثره العميق بهذا الدين في كتاباته، إذ عثر على قصيدتين دينيتين منسوبتين إليه يُستشف منهما إيمان الباي بكتاب اللّه وسنة رسوله (عليه السَّلام).

وكان الحاج ينتسب إلى الطريقة الرحمانية، أضف إلى ذلك أن **بوضربة** هو المفاوض المشهور زمن الحملة الفرنسية والمؤيد للاحتلال الفرنسي، والحاج **أحمد باي** قاد المقاومة الجزائرية في الشرق الجزائري إلى غاية 1848م. لذا نستشف الحقد الدفين لبوضربة تجاه الباي من خلال تدقيقنا لما جاء في مذكراته.

إذا أخذنا بصحة الأحداث قد يكون الحاج أحمد باي ذهب إلى البقاع المقدسة رفقة أمّه التي لازمته طيلة حياتها وكانت له السند والسبب في ترقيته إلى منصب (الباي) خاصة أن بنات **بن قانة** كما تشير إليه الدكتورة **جميلة معاشي** لهن تأثير كبير على أزواجهن البايات في تسيير أمور البايلك[3] و**الدايخة** بنت محمد بن قانة زوجة عبد اللّه باي (1219هـ/1804م)[4] خير دليل.

وبذلك أعتبرها الرحلة الأولى للحاج أحمد للبقاع المقدسة وهو حديث السن.

أما الرأي الثاني:

فيقول بتوجه الباي إلى مكة في عام 1818م عند تعيينه خليفة في عهد الباي **أحمد المملوك**[5] والخليفة ثان منصب سياسي تقلّده الحاج أحمد بعد منصب قايد العواسي بأمر من الداي **حسين باشا** للباي **أحمد المملوك** إذ كان الداي يُكن للحاج أحمد محبة خاصة ويعتبره كابنه. يشير د. **نصر الدين سعيدوني** إلى أن الداي حسين كلف الحاج أحمد بأخذ أموال أوقاف الحرمين[6].

في رحلة بحرية بسفينة مجهزة، ومشددة الحراسة عبر البحر الأبيض المتوسط، انطلقت من العاصمة وفق ما أشار إليه فيرو نقلا عن إحدى جواري الحاج **أحمد** باي[7] وجابت حواضر الخلافة: مصر والحجاز فعاصمة الخلافة العثمانية.

نجد هذه الرحلة مجسدة على جدارية ملونة منفذة بطريقة الفريسكو، كسيت بها الجهة العلوية لجدران قصره بمدينة قسنطينة عاصمة حكمه للبايلك (1826/1837م). هذا المعلم يُعد من أفخم القصور في الجزائر من حيث مساحته الشاسعة إذ يتربع على حيّز يقدر بـ5609م^2، وهو روعةٌ في معماره الذي استلهمه الحاج من معالم تلك الحواضر التي زارها.

الحرم المكي / رسومات جدارية موجودة على حائط وسط الدار بقصر الحاج أحمد باي.

المدينة المنورة / رسومات جدارية موجودة على حائط وسط الدار بقصر الحاج أحمد باي.

دامت رحلته قرابة خمسة عشر شهرا، وكانت مصر محط ترحال الحجيج الذاهبين والآتين من مكة، لذا قضى بها مدةً من الزمن، تعرّف فيها على شخصيات بارزة وعلى رأسها حاكم مصر محمد علي باشا وابنيْه **إبراهيم باشا** و**طوسون باشا**، الذي كان على اتصال دائم بأحمد باي، ولقد سمحت إقامته بمصر بالتعرف على القدرات القتالية والتنظيم العسكري المحكم الذي كانت عليه الجيوش المصرية، ولقد تأثر بشخصية **محمد علي باشا** الذي عرف بإصلاحاته الإدارية والعسكرية والاقتصادية وهناك زار دار الترسانة الحربية ببولاق أو بلق التركية وهو مجسد على الجدارية التي تخص مدينة القاهرة.

كما شملت زيارته عاصمة الخلافة العثمانية والتي أشار إليها بوضوح في الجدارية التي تشمل مسجد آيا صوفيا والجامع الأزرق.

إلى جانب ذلك أظهرت على هاته الجدارية أماكن وأسماء المزارات التي عرّج عليها، مثل مقبرة أمِّنا حواء بجدة.

مقبرة أمنا حواء: ويَنسب سكان المدينة التسمية لأم البشر حواء التي يقولون أنها دفنت في هذه المدينة التي نزلت إليها من الجنة. وتُرجع المصادرُ تسميةَ مدينة "جدة" نسبة إلى كلمة "جدة" بمعنى والدة الأب أو الأم.

مسجد الإمام الشافعي: شيده **الكامل الأيوبي** سنة111م، ولم يبق منه إلا الضريح. ولد **الشافعي** بغزة سنة 150 هجرية (767م) ومذهبه ثالث المذاهب الأربعة في القدم. جاء إلى مصر سنة 199هجرية، ولم يزل بها إلى أن توفي يوم الجمعة آخر رجب سنة 204 هجرية (819م)، ودفن بالقرافة الصغرى.

مسجد الإمام الحسين في قاهرة المعز: وهو من أهم الأماكن الإسلامية المقدسة، بني في عهد الخلافة الفاطمية 549هـ/1154م، وسمي بهذا الاسم لاعتقاد الناس أن رأس الإمام **الحسين بن علي** بن أبي طالب (رضي اللّه عنه) حفيد **النبي** ﷺ مدفون فيه. هو أحد أكبر وأشهر مساجد القاهرة عاصمة مصر وينسب إلى **زينب**

مسجد ومدرسة السلطان حسن: (757 - 764هـ/1363 - 1356م) أنشاه السلطان حسن بن محمد بن قلوون، وهو باتجاه قلعة الجبل، به أربع أيونات تمثل المذاهب الأربعة (الشافعي، الحنبلي، الحنفي، المالكي)، وهو من أعظم المساجد المملوكية بالقاهرة.

هذه الرحلة تمثل وسيلة من وسائل التواصل الثقافي والفكري والتبادل العلمي والمعرفي. وقد أكسبت **الباي أحمد** الكثير من المعارف والتجارب، وتركت لنا وثيقةً مهمة على جدران القصر تروي قصةَ زمانٍ ومكان.

مسجد السيدة زينب بالقاهرة: بنت **علي بن أبي طالب**. يقع مسجد ومشهد السيدة زينب بجانب المشهد الحسيني، بني المشهد على قبر السيدة زينب عام 85هـ، وهو أهم مزار بمصر ومركز من مراكز الطرق الصوفية، يتوافد إليه آلاف من الزوّار وتقام هناك احتفالات مولد السيدة زينب في كل عام في شهر رجب.

المصادر والمراجع

(1) بوضرساية بوعزة في كتابه: الحاج "أحمد باي في الشرق الجزائري، رجل دولة" 1830-1848م.

(2) مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، تحقيق: د.محمد العربي الزبيري ط2، ش.و.ن.ت - الجزائر 1981م 115.

(3) جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ (16م) إلى 31هـ (19م).

(4) "مذكرات الحاج أحمد" الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر تحقيق، أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980 م، ص86.

(5) بوضرساية بوعزة: "الحاج أحمد باي ..رجل دولة ومقاوم" (1826-1848م) ص43.
كان دكان الحرمين الشريفين بالجزائر العاصمة يقوم بثلاث وظائف منها حفظ... مكة والمدينة وتقديمها لفقراء الحرمين وقت الحج لمزيد من المعلومات انظر: د.خليفة حماش: «دكان الحرمين الشريفين في مدينة الجزائر في العهد العثماني». في مجلة الدارة، العدد الأول، السنة السادسة والثلاثون-محرم 1431هـ.

(6) C .Ferau .Visite au palais de Constantine P36